الإسلاموفوبيا الأكاديمية:
برنار لويس وجذور التخويف من الإسلام والمسلمين

Academic Islamophobia
Bernard Lewis and the Roots of the Fear of Islam and Muslims

د. أحمد الفراك [1]

Dr. Ahmed Elfarrak

ملخص البحث:

يعد برنارد لويس (1916-2018) من أشهر المستشرقين المعاصرين والمؤرخين الغربيين الذين أكثروا من الكتابة عن دين الإسلام وعن تاريخ الثقافة الإسلامية وواقعها، حيث تغطي كتاباته حقولا دينية وثقافية وتاريخية وسياسية كثيرة، كما تميز باطلاعه الواسع على التراث الإسلامي القديم والحديث، ساعدته في ذلك معرفته باللغات التي تشكل بها هذا التراث، بالإضافة إلى ثقافته الموسوعية.

وقد كتب برنارد لويس عن الإسلام منذ نشأة جماعته الأولى وخلال تطوره في التاريخ، مستعينا بكتب التاريخ والسير والآداب السلطانية، وأصدر أحكاما واستخلص خلاصات تنحو منحى التعميم والإطلاق في كثير من الأحيان، ونظرا لمكانته الأكاديمية الاعتبارية، فقد تأثير كبير في مثقفي القرن العشرين وعلى رأسهم فرنسيس فوكوياما وصموئيل هنتغتون.

ولذلك سنحاول في هذا المقال أن نجيب عن الأسئلة الآتية:

كيف تحدث هذا المستشرق المشتهر عن دين الإسلام وتاريخه وثقافته وأخلاقه ومستقبله؟ وفي أي صورة قدمه لدوائر اتخاذ القرار في أمريكا وبريطانيا من جهة وللقارئ الغربي من جهة ثانية؟ وهل وُفق في إنشاء تصور أكاديمي موضوعي للإسلام وللتاريخ الإسلامي؟ وكيف استشرف مستقبل الإسلام في تنبؤاته الأخيرة؟

[كلمات مفاتيح: برنارد لويس- إسلاموفوبيا- خوف- استشراق- تنبؤ- تحيز]

Abstract

Bernard Lewis (1916-2018) is considered as one of the most famous contemporary orientalists and Western historians who wrote extensively about Islam and Islamic history and

(1) أستاذ الفلسفة بجامعة عبد المالك السعدي، تطوان.

culture. His writings cross the borders of several disciplinary fields: religion, culture, history and politics. His prolific intellectual production was the fruit of a commendable encyclopedic knowledge, particularly his extensive knowledge of the ancient and modern Islamic tradition and his mastery of the languages in which this tradition was rendered.

Bernard Lewis wrote about Islam from the moment of its inception and through its development across history; and the list of the historical books, biographies, and mirror for princes literature... to which he refers is impressive. In his writings, however, he issues judgments and draws conclusions that often tend towards generalizations. Due to his legal academic status, he had a considerable influence on prominent Western intellectuals in the twentieth century, mainly on Francis Fukuyama and Samuel Huntington.

In this article I will address the following questions: how does this famous orientalist view Islam, its history, culture, morals, and future? In what way did he present it to the decision-making circles in America and Britain on the one hand, and to the Western reader on the other? Was he able to produce an objective academic conception of Islam and Islamic history? How did he foresee the future of Islam in his latest predictions?

[**Keyswords**: Bernard Lewis - Islamophobia - Fear - Orientalism - Prediction - Prejudice].

مقدمة:

لا شك في أن البروفسور برنارد لويس (1916-2018)[1] اليهودي الديانة والبريطاني المولد والأمريكي الجنسية، من أشهر المستشرقين المعاصرين والمؤرخين الغربيين الذين أكثروا من الكتابة عن الإسلام وعن الثقافة الإسلامية والعربية، حيث تغطي كتاباته حقولا دينية وثقافية وتاريخية وسياسية كثيرة، كما تميز باطلاعه الواسع على التراث الإسلامي القديم والحديث، ساعدته في ذلك معرفته باللغات التي تشكل بها هذا التراث، والتي منها العربية والفارسية والتركية والعبرية والآرامية فضلا عن اللغات الحديثة الانجليزية والألمانية والفرنسية.

(1) ولد برنارد لويس بلندن وتخرج من قسم التاريخ بجامعة لندن بأطروحة في موضوع «أصول الإسماعيلية»، وشارك في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية، قبل أن يعود مدرِّسا ورئيسا لقسم التاريخ بمدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية، ومتعاونا مع المخابرات البريطانية، وسنة 1982 انتقل إلى أمريكا زائرا بجامعتها، واشتغل هناك مستشارا في خدمة اللوبي اليهودي، كما حصل على الجنسية الأمريكية واستقر بالولايات المتحدة الأمريكية إلى وفاته.

بثقافته الموسوعية كتب برنارد لويس عن الإسلام منذ نشأة جماعته الأولى وخلال تطوره في التاريخ، مستعينا بكتب التاريخ والسير والآداب السلطانية، وأصدر أحكاما واستخلص خلاصات تنحو منحى التعميم والإطلاق في كثير من الأحيان، ونظرا لمكانته الاعتبارية بوصفه خبيرا للشؤون العامة في إدارة المحافظين الجدد في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد كان له بالغ التأثير في مثقفي القرن العشرين وعلى رأسهم فرنسيس فوكوياما وصموئيل هنتغتون. فكيف تحدث هذا المستشرق المخضرم عن الإسلام؟ وفي أي صورة قدمه لدوائر اتخاذ القرار في أمريكا وبريطانيا من جهة وللقارئ الغربي من جهة ثانية؟ وهل وُفق في إنشاء تصور أكاديمي موضوعي للإسلام وللتاريخ الإسلامي؟ وكيف استشرف مستقبل الإسلام في تنبؤاته الأخيرة؟

المحور الأول: عودة الإسلام وعداء الإسلام

1. مقدمة في ذم تنميط الفكر الاستشراقي

لا يفوتنا التأكيد في هذه المناسبة على أن الفكر الغربي عموما لم يكن على نمط واحد في موقفه من الإسلام عقيدة وثقافة وتاريخا وسياسة، وأن المستشرقين والباحثين في التراث الإسلامي بعلومه وآدابه لم يكونوا على رأي واحد ولم تجرفهم سيول التحيز الأعمى جميعهم، إذ اختلفت الرؤى والمواقف والاستنتاجات، فعرفت الدراسات الاستشراقية مفكرين وفلاسفة وعلماء ناهضوا إديولوجية المركزية الغربية وفضحوا تحيزاتها العرقية والثقافية، ولم يركنوا لتلك النظرة العدائية المسبقة التي تمتلئ حنقا وحقدا على كل ما هو إسلامي وشرقي وعربي.

ونذكر ممن حافظوا على قسط كبير من الإنصاف والحياد في أبحاثهم ومواقفهم الأستاذ في جامعة كورنيل مارتن برنال في كتابه الشهير «أثينا السوداء: الجذور الأفروآسيوية للحضارة الكلاسيكية»، والذي يُعد من أبرز الدراسات الفكرية المقارنة التي تتبعت جذور التأثير الإفريقي والآسيوي في الثقافة اليونانية، وجورج جيمس الذي فاجأ من خلال بحثه في الفلسفة وتاريخها المجتمعات الأكاديمية المهتمة بالدراسات الفلسفية المقارنة في الفضاء الغربي بكتابه «التراث المسروق» محاججا فيه بالشواهد، وبالاعتماد على النصوص الفلسفية المصرية القديمة ليثبت بأن الإغريق ليسوا بمبدعي الفلسفة الإغريقية، بل إن المصريين هم مبدعوها من حيث الريادة والأصل. وجون إم هوبسون، صاحب كتاب

«الجذور الشرقية للحضارة الغربية»[1]، وجي جي كلارك، صاحب كتاب «التنوير الآتي من الشرق»[2]، وإدغار موران في كتاب «ثقافة أوربا وبربريتها»[3]، وبيير روسي، في كتابه «التاريخ الحقيقي للعرب»[4]، وزكاري لوكمان، في كتابه «تاريخ الاستشراق وسياساته»[5]، وسيرج لاتوش في كتابه «تغريب العالم»[6]، وطوماس جولدشتاين في كتابه «المقدمات التاريخية للعلم الحديث» الذي بين فيه «التراثي الثقافي العظيم للإسلام...وثروة المعطيات التي قدمها الإسلام للغرب»[7]، وروجيه غارودي في مشروع ضخم وعميق أثبت أنه «لا يليق بالحضارة الغربية المسيحية الادعاء بأنها تلعب دور القاضي والمرشد إلى السلوك الحسن»[8]، وعشرات الكتب والدراسات التي نجت من آلة التضليل التي مارستها وتمارسها دوائر الغزو الفكر الموجَّه من أجل قلب الحقائق وتزوير التاريخ.

2. عودة الإسلام ووعوده عند برنارد لويس

ينتبه القارئ لمؤلفات لويس الغزيرة إلى أنها اتسمت -في غالبها[9]- ببثِّ نظرة عدائية يغلب عليها التحيز للغرب عموما ولليهود خصوصا ضد المسلمين، لذلك نجده ينعتهم بمختلف النعوت القدحية وينسبُ تأخرهم عن أوروبا المسيحية لأسباب دينية وثقافية أصيلة في الإسلام، مستخلصا أن العالم الإسلامي في حالة عداء وصراع أبدي مع العالم المسيحي، ويُرجع طبيعة ذلك الصراع إلى الطبيعة المختلفة للديانتين، وإلى أن الحرب المقدسة (الجهاد) عند المسلمين لا تتوقف إلا لتبدأ من جديد[10].

(1) جون إم هوبسون، الجذور الشرقية للحضارة الغربية، ترجمة منال قابيل، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2006م.

(2) كلارك جي جي، التنوير الآتي من الشرق، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط1، 2007م.

(3) إدغار موران، ثقافة أوربا وبربريتها، ترجمة محمد الهلالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2007م

(4) بيير روس، التاريخ الحقيقي للعرب، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1996م.

(5) زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2007م

(6) سيرج لاتوش، تغريب العالم، مرجع سابق، 1999م.

(7) جولدشتاين توماس، المقدمات التاريخية للعلم الحديث، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد:296، سبتمبر 2003م، ص: 109 وما بعدها.

(8) غارودي روجيه، وعود الإسلام، مرجع سابق، ص: 63.

(9) نقول «في الغالب» تجنبا للإطلاق والاستغراق، مادام برنار لويس أقر بكثير من الحقائق ولم يكن متحيزا بصددها مطلقا وفي جميع ما كتَب.

(10) Bernard Lewis. Return of Islam. In Commentary , Vol. 62 , January 1976.

ونظرا لأنه كان من كبراء قادة التفكير الاستراتيجي في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد ألهم بمقاله الذي يحمل عنوان تخوفه من انتشار الإسلام «عودة الإسلام»(1) كل من صاموئيل هانتنغتون في «صراع الحضارات»، وفرانسيس فوكوياما، في «نهاية التاريخ» وغيرهما من المفكرين الاستراتيجيين، بتبني الرؤية المتحيزة للغرب ضدا على كل الحضارات والثقافات الأخرى وعلى رأسها الحضارة الإسلامية، مقابل تسويغ الدفاع عن النظرة الأحادية إلى العالم، وتحريض صناع القرار الأمريكيين والأوربيين على معاداة المسلمين عداءً عقديا وسياسيا واقتصاديا وعسكريا، باعتبارهم قوة مستقبلية مُهدِّدة للغرب، مُبينا من خلال توظيف جملة من الشواهد التاريخية أن «التكهنات الحالية بخصوص الإسلام كعامل ممكن في السياسات الدولية غير إيجابية»(2)، مما ساعد في استشراء ثقافة الخوف من الإسلام أو ما يُسمى ب»الإسلاموفوبيا» الثقافية في الأوساط الأكاديمية ومنها في ثقافة المجتمعات الغربية التي أشبعتها وسائل الإعلام بمقولات تصنيفية نمطية من قبيل: «الإسلام نقيض الديموقراطية»، «الإسلام ضد الحرية»، «المسلمون يكرهوننا لأننا نحب الحرية!»، «المسلمون إرهابيون بطبيعتهم» ... حتى قيل إن برنارد لويس هو المُنظِّر الأول لسياسة التدخُّل والسَّيطرة الأمريكية في العراق وأفغانستان وفلسطين.

ورغم إدراكه لأهمية منطقة الشرق الأوسط باعتبارها «مهد الحضارة الإنسانية والديانات التوحيدية. وفي العصور الوسطى كان موطن أول مجتمع عالمي ذي ثقافة بينية، بكل ما للكلمة من معنى، وكان مصدر ابتكارات وإنجازات عملاقة في كل حقل تقريبا من حقول العلوم والتكنولوجيا، والثقافة والفنون، كان قاعدة لإمبراطوريات متتالية، عظيمة، وشاسعة. وكانت آخر هذه الإمبراطوريات وأعظمها من نواح متعددة الإمبراطورية العثمانية.»(3)، إلا أنه يشكك في قدرة البلدان الإسلامية على الاستقلال الذاتي والتحرر من التبعية للغرب، التي يستحيل الفكاك منها لأنه يعتقد أن انتهاء السيطرة السياسية والعسكرية الغربية لا يلغي كون «التأثير العلمي-التكنولوجي والثقافي والمؤسساتي الكبير مازال مستمرا، بل متناميا.وكما في سائر أنحاء العالم غير الغربي (العالم الثالث) كان هذا التأثير هائلا، وسيستمر كذلك»(4) ، وهنا يغض الطرف عن الاحتلال الأمريكي العسكري

(1) أدرج هذا المقال في كتابه الإسلام والغرب، ترجمة فؤاد عبد المطلب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2007م، ص:197.

(2) برنار لويس، الإسلام والغرب، مرجع سابق، ص: 224.

(3) برنار لويس، تنبؤات برنارد لويس: مستقبل الشرق الأوسط، شركة رياض الريس، بيروت، ط 1، 2000م، ص 131.

(4) برنار لويس، تنبؤات برنارد لويس، مرجع سابق، ص: 20-21.

للعراق، وقبله الاحتلال العسكري لفلسطين وأفغانستان. ولا يقبل أن تُتهم «إسرائيل أو اليهود أو الولايات المتحدة- والغرب عموما.»[1].

وفي السياق نفسه يقسم برنارد لويس العالم إلى قسمين متقابلين؛ قسم العالم المتفوق وهو الغرب الرأسمالي المسيحي (الكافر في نظر المسلمين)، وقسم العالم الجاهل المتخلِّف وهو ما سوى الغرب (ومنهم المسلمون). وكتب عن تاريخ الإسلام والمسلمين، بل انتقى من تاريخ المسلمين وواقعهم صُورا ترسخ تلك النظرة الازدرائية التي يحملها المخيال الغربي عن الإسلام وعن نبيه محمد ﷺ وعن الثقافة الإسلامية والعربية.

عن طريق التنميط والتعميم سحب برنارد لويس تلك الصور الإيجابية عن المسلمين والإسلام قديما وحديثا، واتهم دين الإسلام بالجمود وعدم القابلية للتطور، على غرار التُّهم التي كانت ترسخها الكنائس المسيحية عن الإسلام «الدين الخصم الخطير»[2]، كما نعت المسلمين بنعوت قدحية من قَبيل أنهم لا يتطورون وأنهم يشكلون ظاهرة جماهيرية لا سامية، كما أن «الإسلام دين مؤسسة بشر خالص»[3]، وأن سيرة النبي والصحابة تعج بالأساطير[4].

على خلاف ما سبق فهولا يدع فرصة تمر إلا ويمتدح الديانة اليهودية ويقدمها على أنها ديانة مدنية منفتحة على الآخر المخالف دينيا، مع العلم أنه كان أشهر المساهمين في مجلة «كومنتري» التي تعبر عن تفكير الصهيونية الجديدة، يقول: «وبما أن اليهودية لا تدعي حصر الحقيقة فيها، فإن الخلاص وفقاً للتعاليم اليهودية يمكن بلوغه لغير اليهود، شريطة أن يمارسوا التوحيد والأخلاق...فقد كان الاتفاق شاملا بين علماء اليهود بأن الإسلام دين توحيد»[5]، بل خصص كتابا كاملا ليبين أن الإسلام (الدين والثقافة) هو أزمة العصر[6]، وهو تحامل لا يستساغ منهجيا ولا معرفيا. والإسلام دين بلا فن حيث «قامت اللعنة التي وُجهت إلى التصوير بشلِّ أي تقدم في الفن الديني التمثيلي بشكل مؤثر، بينما

(1) برنار لويس، تنبؤات برنارد لويس، مرجع سابق، ص 21.

(2) برنارد لويس، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة وتقديم: ماهر عبد القادر محمَّد، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 1996م، ص 50.

(3) برنارد لويس، الإسلام والغرب، مرجع سابق، ص: 144.

(4) المرجع نفسه، ص: 142-143.

(5) المرجع نفسه، ص: 254.

(6) برنار لويس، الإسلام وأزمة العصر: حرب مقدسة وارهاب غير مقدس، ترجمة أحمد هيكل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2004م.

منعت عدم الثقة في الموسيقى أي تقدم في الطقوس الدينية، فليس في الإسلام تراتيل أو فوجات أو أيقونات وتتكون الزينة الداخلية للمساجد غالبا من نصوص القرآن»[1]، وسمى الفتوحات بالغزو[2] والاجتياح[3]، واعتبر أن «الإسلام دينا محارِبا أو في الحقيقة دينا عسكريا من بدايته كما اعتبر أتباعه محاربين متعصبين منهمكين في نشر دينهم وشريعتهم بالقوة المسلحة»[4]، وأنهم لا يتوقفون عن القتل إلا بمحو جميع الأديان، أي «إلى أن يقبل العالم كله الإسلام أو يخضع لسلطة الدولة الإسلامية وحتى يحدث هذا الأمر، يعد العالم منقسما إلى قسمين: دار الإسلام حيث يسود الحكم الإسلامي وتطبق الشريعة، ودار الحرب وتشمل بقية العالم. وبين هذين العالمين توجد حالة حرب مفروضة وضرورية أخلاقيا حتى الانتصار النهائي والحتمي للإسلام على الكفر. وطبقا لكتب الشريعة من الممكن لحالة الحرب هذه أن تقطع -في الوقت المناسب- بهدنة لمدة محدودة، ولا يمكن أن تنتهي بالسلام بل بالانتصار النهائي»[5].

المحور الثاني: بين كراهية المسلمين والإعجاب بإسرائيل وأتاتورك

1. مدح علمانية أتاتورك وصهيونية إسرائيل

ومن مظاهر حقده على المسلمين أيضا مبالغته في الثناء على مصطفى كمال أتاتورك في أغلب مؤلفاته ونعت سياسته ضد مظاهر التَّدين الإسلامية كلباس المرأة المسلمة (الحجاب) وطريقة تقسيم الإرث والزواج واللغة العربية بكونها «تعبيرا ظاهرا وواضحا –وقبولًا- لتحول اجتماعي عميق وحضاري حقيقي»[6]، وهو ثناء لا يوازيه سوى إعجابه برواد الاستشراق الإديولوجي الذين أخذوا على عاتقهم «تدمير الإسلام بأسلحته نفسه»[7]، واتهامه جماعة الإخوان المسلمين مثلا بنفس التهم التي تتهمها بها إسرائيل من غير دليل يثبت دعواه؛ فهي في نظره لا تؤمن إلا بالعنف، وهي التي تعتقد «أن الكفاح المسلح فقط هو الكفيل بتحقيق

(1) برنار لويس، لغة السياسة في الإسلام، ترجمة إبراهيم شتا، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، قبرص، طَ1، 1993م، ص:23.

(2) المرجع نفسه، ص: 101.

(3) المرجع نفسه، ص: 144.

(4) المرجع نفسه، ص: 113.

(5) المرجع نفسه، ص:117، وينظر أيضا: برنار لويس، الإسلام والغرب، مرجع سابق، ص: 30.

(6) برنار لويس، الإسلام والغرب، مرجع سابق، ص: 60.

(7) المرجع نفسه، ص: 135.



الأهداف المنشودة[1]، وهي التي قامت بإحراق القاهرة في 26 كانون الثاني عام 1952، كما اتهمها أيضا بتلقي «الدعم المادي من الأنظمة المسلحة المحافظة بما فيها الممالك السعودية والأردنية والإيرانية في أوقات مختلفة»[2]. ولا يتوانى في التعبير بلسان خارجية الاحتلال الصهيوني كلما سنحت له الفرصة بذلك، ولا غرابة في ذلك إذا علمنا بأنه كان يقضي شهرين من كل سنة في فنادق ومنتجعات الكيان الصهيوني[3].

مقابل ما سبق لم ينعت برنارد لويس الحركات الإسرائيلية العنيفة ولا الدولة الصهيونية التي تستوطن أرض فلسطين بأي نعتٍ قدحي، بل لم أعثر على أي اتهام وجَّهه لغير المسلمين والحركات الإسلامية، وأكثر من هذا فهو يعتبر أن جميع الحركات الأصولية تعادي الديمقراطية، بل حتى حركة فتح الفلسطينية اتهمها ب»أكبر وأهم منظمات حرب العصابات الفلسطينية»[4]، وأنه لا تقدم ولا سلام للشرق الأوسط إلا مع إسرائيل، وفي إطار النموذج الأمريكي الليبرالي، أما دون ذلك ف»لا تملك المنطقة كبير أمل بالتقدم المعنوي أو المادي»[5]. وكأنك تقرأ لمسؤول سياسي أمريكي متعاطف مع الصهيونية يتلوا بلاغا حربيا

2. تعميم نموذج القاعدة على الإسلام

نظرا لما لأهمية النماذج في تشكيل الصور النمطية عبر منهجية التعميم، اتخذ برنارد لويس في كتابه «أزمة الإسلام: من الحرب المقدسة إلى الإرهاب غير المقدس»[6] من جماعة «القاعدة» نموذجا مستهجنا لمهاجمة الإسلام والمسلمين من خلاله، فالقاعدة في نظره تمثل الصورة الواضحة لإحياء تداخل الديني والسياسي كما جسدته الجماعة الإسلامية الأولى في العهد النبوي، التي كان النبي فيها «إلى جانب النبوة جندياً ورجل دولة بل رئيس دولة ومؤسس إمبراطورية»[7]، بل كان «شيخ الأمة لأولئك الذين آمنوا به بحق، ليست

(1) برنارلويس، الإسلام والغرب، مرجع سابق، ص: 206.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) هذه المعلومة ذكرها مازن مطبقاني في مقدمة كتابه «الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي»، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ط1، 2018م.

(4) المرجع نفسه، ص: 207.

(5) برنارلويس، تنبؤات برنارد لويس: مستقبل الشرق الأوسط، مرجع سابق، ص: 117.

(6) برنار لويس، أزمة الإسلام: من الحرب المقدسة إلى الإرهاب غير المقدس، ترجمة: أحمد هيكل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2004م.

(7) Bernard Lewis. « Return of Islam», In Commentary , Vol. 62 , January 1976.pp 89-101.

سلطته مشروطة أو مقبولة بدون اعتراضات من قبل القبيلة التي يمكن أن تسحبها في أي وقت، ولكنه حق ديني مطلق. إن مصدر السلطة انتقل من الرأي العام إلى الله الذي أناطها برسوله المختار»[1]. لينقل إلى قرائه لاهوتية الدولة في الإسلام وتيوقراطيتها ولا بشريتها، ليخلص إلى أن «تجربة الإسلام السياسية في معظمها استبدادية»[2].

والجمع بين الدعوة والدولة في نظر لويس هي التي تشكل روح الأزمة السياسية في الإسلام وتاريخ المسلمين، ويجعل الدولة الإسلامية على طرفي نقيض مع الدولة المسيحية التي فصلت منذ البداية بين ما لله وما لقيصر، مِثلها مثل جماعة الحشاشين التي أفرد لها كتابا بكامله، وأورد تعريفهم كما يلي: «الحشاشين الذين ينبغي أن يلعنهم الإنسان ويتفاداهم، إنهم يبيعون أنفسهم، ويتعطشون للدماء البشرية، ويقتلون الأبرياء مقابل أجر، ولا يلقون اعتبارا للحياة أو النجاة، وهم يغيرون منظرهم كالشياطين التي تتحول إلى ملائكة من النور»[3]، وكلمة «حشاشين» تتماهى حسب لويس مع«assassin» الإنجليزية والتي تعني الاغتيال، ليفيد بذلك أن للاغتيال مشروعية دينية في الإسلام[4]، وينقل صورا خيالية من بعض القصص القديمة ويقدمها موازية لبعض قصص القرآن (مثال فقرة أسطورة الفردوس)[5] ، وأحيانا يخفي رأيه الخاص وراء متكلم مجهول فينعت خلافة أبي بكر وعمر ب»أرستقراطية جشعة عديمة الضمير مجردة من المبادئ الخلقية، وبدلا من العدل والمساواة كان هناك عدم المساواة والامتياز والسيطرة»[6]، مثلما أن الحاكم في الإسلام يحكم باسم الرب ويستمد منه مشروعيته التي لا ينازعه فيها أحد، وله الحق في أن يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل»[7].

---

(1) Bernard Lewis. The Arabs in History. London: 1950 and 5th edition 1970. P 43

(2) Bernard Lewis. « Democracy in the Middle East, Its State and Prospects.» In Middle Eastern Affairs. Vol. vi, No. 4, April 1955. P. p. 101-108.

(3) برنار لويس، الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، ترجمة محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 2006م، ص:13

(4) المرجع نفسه، ص: 185-187

(5) المرجع نفسه، ص: 20

(6) المرجع نفسه، ص: 40

(7) Bernard Lewis. «Democracy in the Middle East, Its State and Prospects.» In Middle Eastern Affairs. Vol. vi, No. 4, April 1955, p 102-107.

المحور الثالث: تنبؤات لويس وإشعال فتيل الصراع

1. التنبؤ بحتمية الصراع مع المسلمين

في تنبؤاته المستقبلية يؤكد لويس على حتمية الصراع بين المسلمين والغرب، وعلى استحالة الشراكة في بناء المشترك مع «الخطر» الإسلامي، ففي نظره «ستبقى المنطقة مهمة نوعا ما، فهي ملتقى ثلاث قارات، ومركز ثلاث ديانات، وموقع استراتيجي يجب الحفاظ عليه أو خطر يجب التوجس منه، فبعد زمن قد يطول أو يقصر ستبقى المنطقة موضع اهتمام القوى الخارجية، سواء منها القديم الذي يعود إلى الحياة أو الجديد الذي يولد .وفي حال حافظت المنطقة على مسارها الحالي، علما أنها لا تملك مصادر الهند والصين ولا تكنولوجية أوربا وأمريكا وصناعتهما، فهي ستعود إلى دائرة الخطر بدلا من أن تصبح شريكا في لعبة السياسة الدولية.».[1]

سنة 2012م أصدر لويس مذكراته وهو في السادسة والتسعين من عمره في كتاب بعنوان «ملاحظات على القرن» حاول فيه أن يتبرأ من دعمه احتلال العراق، وأن يناقش بعض قضايا كتاب إدوار سعيد «الاستشراق»، لكنه أكد أن المسلمين متخلفين بسببٍ ذاتي وليس بسببِ الاستعمار الغربي، وأن الغرب كما هزم هتلر والشيوعية يمكنه أن يدعم مؤسسات المجتمع المدني في الدول الإسلامية لتحديث الشرق الأوسط الكبير، كما حذر من تنامي المسلمين واكتساحهم الكرة الأرضية بقوله: «إن بروز عالم من الدول ذات الأصول التركية، شبيهة بدول العالم العربي التي انبثقت من سقوط الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية، ستزداد أهمية في السنوات القادمة، سيكون له تأثير هام في الشرق الأوسط. إن هذه الدول بدأت تشعر بالانتماء إليه والعودة إلى جغرافيته.».[2]

من خلال ما سبق يتبين طغيان النزعة التفردية والتمركزية للفكر الغربي، وطمس محاسن الإسلام وإنجازات المسلمين والتستر على الوجه المُشرق للحضارة الإسلامية وتغطية القيم النبيلة التي تحملها الثقافة الإسلامية، إذ «نرى أن الإسلام أصبح يرتبط اليوم في الغرب بالأنباء المثيرة المفجعة بصفة خاصة...فلقد أدى استعمال مصطلح الإسلام إلى السماح بقدر واضح من الأخطاء وبأقوال تنم عن التعبير عن التحيز العرقي الشديد،

(1) برنار لويس، تنبؤات برنارد لويس: مستقبل الشرق الأوسط، مرجع سابق، ص: 119-120.

(2) المرجع نفسه، ص: 18.

والكراهية الثقافية بل والعنصرية، والعداء العميق الذي قد يتذبذب صعوداً هبوطاً... ويجري ذلك كله في إطار ما يُفترض أنه تغطية منصفة متوازنة مسئولة للإسلام»[1].

هذه الصورة النمطية السلبية للمسلمين بوصفهم «إرهابيين...وجماهير غوغائية متعطشة للدم»[2] والتي تخفي عنوة الوجه الحقيق للإسلام،جعلت سيرج لاتوش يصرخ في وجه العالمية الغربية قائلا: «قبل أن نحلم بعالمية حقيقية يجدر بنا التساؤل حول بربرية حضارتنا، بل حتى تعصبها في أعين الآخرين. وهناك كثير من سمات أخلاقنا تبدو مرعبة وشائهة في أعين المجتمعات غير الغربية. وإذا كانت هذه الأخيرة قد تسامحت معنا في نهاية المطاف فذلك لأنه لم يكن لها الخيار ولم يكن بمستطاعها أن تحظر عندنا ممارساتها، كما حظرنا نحن عندها، تلك التي بدا لنا أنها لا تطاق»[3].

تلك النظرة غير العلمية التي تنظر إلى الإسلام بوصفه النقيض للعلم والحضارة والمدنية، أو «القوة التي يختلف معها الغرب اختلافاً جذرياً»[4] تشكل عائقا منهجيا ومعرفيا في وجه الانفتاح والتعارف الثقافي وإقامة حضارة المشترك الإنساني القائمة على العدل والحرية والتعاون، وإسهام الجميع في العطاء الحضاري العام، دون الوقوع في آفة الاستتباع الثقافي ولواحقه الفلسفية والقيمية. والتي لا تنتج إلا مسخا حضاريا «مسلوب الإرادة مشلول القرار عاجزا عن الحسم في أخص أموره...بعد أن رهن نفسه لرمز استعباده وقهره وجعله نموذجا له يحذو حذوه في الصغيرة والكبيرة، إلا أن يحدث في نفسه انقلابا جذريا أو ثورة شاملة تنقله من حال إلى حال»[5].

2. تشكيل صورة مشوهة عن الإسلام

لقد تحكمت نظرة ازدرائية في جملة من الإنتاجات الفكرية المعاصرة المتحيزة، مثل ما كتبه برنارد لويس وما لحقه وما سبقه من دعاوى تُسوغ الاحتلال وترسخ التفوُّق وتتهم

(1) إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2005م، ص: 29-30.

(2) المرجع نفسه، ص: 74.

(3) سيرج لاتوش، تغريب العالم، مرجع سابق، ص:137.

(4) إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، مرجع سابق، ص: 321.

(5) شبار سعيد، «الثقافة والعولمة؛ قراءة في جدل المحلي والكوني أو ظاهرة التثاقف»، مجلة الإحياء، الرباط، عدد:25، 1428هـ/2007م، ص: 161.

الآخر بجميع التهم التي تُذِلُّه وتُخضِعه، وتسعى إلى «تشكيل الإسلام طبقا لرغبات الغرب»[1]، والتي ترجع في النهاية إلى تصوير الإسلام ضد الحضارة وضد العقل وضد التعايش وضد الديموقراطية، فلا يتردد برنارد لويس مثلا في التقرير بأن «الله هو القيصر حيث إنه وحده الرئيس الأعلى للدولة ومصدر السيادة، وهكذا صاحب التشريع، فالدولة هي دولة الله، والقانون هو قانون الله، والجيش جيش الله، وبالطبع فالأعداء هم أعداء الله»[2].

ولا يَخفى في السياق نفسه أن مؤلف «صدام الحضارات» ينطلق من خلفية فلسفية تغريبية موروثة جوهرها الصراع والتنابذ والعداء، وهذه الخلفية «حرمته من رؤية أي جانب من جوانب الحضارات والأديان والثقافات غير الجانب الصراعي التنابذي، الذي هو محور ارتكاز الحضارة الغربية، وكان تأثره فيما يتعلق بالإسلام بالواقع التاريخي، لا بحقيقة الإسلام وجوهره»[3]، فلا استعداد لديه -في تقديري- ليسمع نداء الآخرين بموضوعية لا تتأثر بالتحيز التاريخي للفكر الغربي الذي يزُكي نفسه ويحجب الحقيقة بالتقليد،ظنا منه بأنه راكم معرفة الحقيقة التي لا تُراجع ولا تقبل التقويم والرد، بالإضافة إلى أنه من أخطاء هنتنغتون الأساسية أنه حصر الغرب في حدود جغرافية قومية ضيقة، في حين أن الغرب لا يتحدد بحدود وطنية، ولا بخريطة جغرافية، ذلك أن بعض الدول توجد في آسيا جغرافيا وهي غربية مثل اليابان وتايوان، وبعض الدول الغربية مثل روسيا لا تتبنى أسلوباً غربياً كاملاً، كما أن ملايين المسلمين يعيشون في أوروبا وهي غربية، ويختلفون عن الغربيين.

أما إذا تعلق الأمر بدين الإسلام أو كتاب القرآن فقد تراكمت حوله جملة من الأحكام المتحاملة زادتها رسوخا الحرب الإعلامية المستعرة التي تجعل القلوب في أكنّة من أن تعير سمعها للآخر المخالف، وتزيل الحجب الموروثة عبر التقليد. فهنتغتون يستأنف رؤية صراعية تقليدية عند الغرب –عن وعي أو عن غير وعي- تدعي التفرد ولا تسمح نفسيا بالتخلص من أدوائها الاستكبارية. هذه الفكرة المتوهمة التي روجت لها الكتابات الاستشراقية المتحيزة، والتي تتبعها وتصدى لكشف مغالطاتها عبد الرحمن بدوي في كتابه «دفاع عن القرآن ضد منتقديه»، ليستنتج أن «القرآن يخرج دائما منتصرا على منتقديه»[4].

(1) هانس كوكلر، المسلمون والغرب من الصراع إلى الحوار، ترجمة حميد لشهب، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط1، 1430هـ/2009م، ص: 144.

(2) Bernard Lewis. « Islamic Revolution.» In New York Review of Books, 27 January 1988, P 47.

(3) العلواني طه جابر، نحو منهجية معرفية قرآنية، مرجع سابق، ص: 487.

(4) بدوي، عبد الرحمن، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، ط1، 1980، ص: 8.

عقلية الصراع هاته أنتجت حضارة الصراع؛ صراع الإنسان مع أخيه الإنسان، وصراع الطبقات والجماعات، وصراع الأمم والأجناس، وصراع المؤسسات والدول والأمم والأديان .وما نراه اليوم من تدخل مسلح وغير مسلح من الدول الغربية في ثقافات الشعوب ومصائرها، وتأجيج الصراعات بين الدول، بل وداخل الدولة الواحدة، ما هو إلا تجل من تجليات النزعة التفردية الغربية القائمة على منطق الصراع، ومنطق الصراع يقتضي وجود العدو الذي ينشب معه هذا الصراع ويستمر، وبذلك يقع الخلل في تشكل العقل الغربي على فلسفة الصراع التي جسدت فلسفة فريدريك هيغل(1770-1831) القائمة على صراع السيادة والعبودية، وديالكتيك الفكرة والنقيض ومركب النقيضين.

فشلت الفلسفة المادية عبر تاريخها الطويل في أن تقدم تصورا يليق بإنسانية الإنسان[1] -كمخلوق مستخلف مؤتمن على وجوده ووجود الأحياء والحياة المسخرين له- بدءا من الفلسفة اليونانية، التي «لم تكن رغم ادعاءات أرسطو، عملية فعالة في نهاية الأمر... وأن تلك الفلسفة الأخلاقية لم تكن إنسانية لأنها لم تكن دعوة موجهة لجميع الناس على حد سواء. وقد رأينا أرسطو لا يخجل من القول أن العبيد لا نصيب لهم في السعادة، مادام لا نصيب لهم في الإنسانية بالمعنى الكامل»[2]. مرورا بالفلسفة الوضعية التي أنكرت مخلوقية الكائن البشري، إلى فلسفات الحداثة التي تنبني على القطيعة مع الدين، ثم فلسفة ما بعد الحداثة، التي يعتبرها المسيري «إعلان الإفلاس الكلي. إعلان أن العالم لا مركز له ولا قيمة ولا معنى، ولا يوجد هامش ولا وسط، ولا يوجد إنسان، ولا إله»[3]، ومع ذلك «يطمع الغرب بأن ينصب نفسه قاضيا على جميع الحضارات الأخرى معتبرا أن المسار الذي اتبعه هو مثالي وهو الوحيد الممكن، وبأن يقرر، انطلاقا من هذه النظرة بأن شعبا ما أو حضارة أو علما أو تقنية هي «بدائية»، «نامية»، «متخلفة» وفقاً للنقطة التي توضع فيها على هذا المسار، أعني وفق شبهها القليل أو الكثير بنا نحن الغرب»[4].

النسق الحضاري الغربي يبدو غير قادر على تحرير الإنسان من نفسه وما كسبت يداه، وغير راغب في التخلي عن «إنِّيته» حسب تعبير ابن سينا، إلا أنه لا بد أن ينتبه قريبا إلى

(1) انظر: ياسين عبد السلام، محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى، مؤسسة التغليف والطباعة والتوزيع للشمال، تطوان، ط1، 1994، ص: 98.

(2) بلدي نجيب، مراحل الفكر الأخلاقي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1962م، ص: 25.

(3) المسيري عبد الوهاب، ضمن تعقيبات في ملحق كتاب «منهجية القرآن المعرفية» لأب القاسم حاج حمد، ص: 277.

(4) غارودي روجيه، وعود الإسلام، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1413هـ/1993م، ص: 79.



وجوب البناء المشترك لحضارةٍ بِهُوَيات مختلفة ومتعارفة، أو بتعبير هانس كوكلر: «قبول الوجود في نفس الوقت لتصورات مختلفة للعالم... يعني في وجود نظم قيمية مختلفة جانب بعضها البعض على أساس الاحترام المتبادل. بوضوح فإن هذا يتطلب الاستغناء (بمعنى ترك) عن محاولة فرض نوع من بديل علماني للدين، والذي يكون في كثير من الأحيان دوغمائيا أكثر من الدين نفسه والاستغناء عن الادعاء بأن المسيحية هي الهوية الوحيدة لأوربا»(1).

على خلاف ما سبق هناك رؤية تأخذ حظا وافرا من التشاؤم -بخصوص إمكان التركيز على المشترك الإنساني بين المسلمين والغرب من أجل التقارب والتعارف والتعاون- وإن كانت تستند إلى بعض المعطيات الموضوعية مِن قَبيل عدم معرفة الغرب للغات المسلمين في تحميل الغرب لمسؤولية عدم إمكان الحوار مع المسلمين، أو لأن «العقيدة الإسلامية تعطي معتنقيها مناعة ضخمة تحفظهم من ترك إسلامهم واتباع ديانات أخرى»(2). وأن علاقة الصدام بين المسلمين والغرب لا تنتهي، بل هي «مرشحة بكل قوة لا لتستمر لقرون عديدة فقط بل لأجل غير مسمى. إذ الرموز الثقافية ذات مدى حياة طويل قد يصل إلى الأبدية»(3)، وبذلك لا أمل في الحوار والتعارف!

خاتمة

نستنتج مما سبق بأن هذه الرؤية الاستشراقية المؤسسة للإسلاموفوبيا الأكاديمية والثقافية لم تتخلص من تحيزها الديني والثقافي ومن تبعيتها لدوائر صناعة القرار في أمريكا وإسرائيل، فضلا عن عدم كفاية الأدلة التي تم توظيفها من طرف برنارد لويس للتدليل على عدائية الدين الإسلامي للعلم والحضارة والإنسان، ولذلك فهي لا تحترم ضوابط المنهج العلمي الذي ينشد الموضوعية والحياد ما أمكنه، ولا تنسجم مع الرؤية العلمية والحضارية والثقافية التي تستشرف مستقبلا تتجاوز فيه الإنسانية مظالم وظلمات الماضي لتحيا وفق قيم تحترم الآخرين وتتعايش معهم رغم الاختلاف اللغوي والتعدد الثقافي والتباين الحضاري. ويكون الحوار الديني والثقافي مع الغرب لا يقود المسلمين ولا غيرهم إلى التنازل عن عقائدهم، ولا يفرض على طرف ما محو ثقافته واللحاق بثقافة الآخر، وإنما هو

---

(1) هانس كوكلر، المسلمون والغرب من الصراع إلى الحوار، مرجع سابق، ص: 147-148.

(2) المرجع نفسه، ص:184.

(3) المرجع نفسه، ص: 183.

حوار يروم التركيز على الأسس المشتركة للتعارف والتبادل، وإسهام جميع الأطراف الواعية بضرورة العمل الجماعي في بناءٍ مشترك لعالمية جديدة وبديلة تنبذ قيم الصراع والكراهية والعدوان التي أنتجتها الأنساق الحلولية والجحودية المغلقة التي لم يزدها أمثال برنارد لويس إلا دعما وتسويغا وإقرارا.

لائحة المصادر والمراجع

كتب باللغة العربية:

• إدوارد سعيد، تغطية الإسلام، ترجمة محمد عناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 2005م.

• إدغار موران، ثقافة أوربا وبربريتها، ترجمة محمد الهلالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط1، 2007م.

• برنار لويس، الإسلام والغرب، ترجمة فؤاد عبد المطلب، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2007م.

• برنار لويس، الإسلام وأزمة العصر: حرب مقدسة وارهاب غير مقدس، ترجمة أحمد هيكل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2004م .

• برنار لويس، تنبؤات برنارد لويس: مستقبل الشرق الأوسط، شركة رياض الريس، بيروت، ط1، 2000م.

• برنارد لويس، اكتشاف المسلمين لأوروبا، ترجمة وتقديم: ماهر عبد القادر محمَّد، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 1996م.

• برنار لويس، لغة السياسة في الإسلام، ترجمة إبراهيم شتا، دار قرطبة للنشر والتوثيق والأبحاث، قبرص، طَ1، 1993م.

• برنار لويس، أزمة الإسلام: من الحرب المقدسة إلى الإرهاب غير المقدس، ترجمة: أحمد هيكل، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2004م.

• برنار لويس، الحشاشون فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، ترجمة محمد العزب موسى، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 2006م.

• بيير روس، التاريخ الحقيقي للعرب، دار البشائر للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1996م..

• بدوي عبد الرحمن، دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر، القاهرة، ط1، 1980م.

• بلدي نجيب، مراحل الفكر الأخلاقي، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1962م.

• جون إم هوبسون، الجذور الشرقية للحضارة الغربية، ترجمة منال قابيل، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2006م.

• جولدشتاين توماس، المقدمات التاريخية للعلم الحديث، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد: 296، سبتمبر 2003م.

• هانس كوكلر، المسلمون والغرب من الصراع إلى الحوار، ترجمة حميد لشهب، الدار العالمية للكتاب، الدار البيضاء، ط1، 1430هـ/2009م.

• زكاري لوكمان، تاريخ الاستشراق وسياساته، ترجمة شريف يونس، دار الشروق، القاهرة، ط1، 2007م..

• ياسين عبد السلام، محنة العقل المسلم بين سيادة الوحي وسيطرة الهوى، مؤسسة التغليف والطباعة والتوزيع للشمال، تطوان، ط1، 1994م.

• كلارك جي جي، التنوير الآتي من الشرق، ترجمة شوقي جلال، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ط1، 2007م.

• مطبقاني مازن، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، دار البشير للثقافة والعلوم، القاهرة، ط1، 2018م.

• معلوف أمين، الهويات القاتلة، قراءات في الانتماء والعولمة، ترجمة نبيل محسن، مطبعة ورد، دمشق، ط1، 1999م.

• غارودي روجيه، وعود الإسلام، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1413هـ/1993م.

Ouvrages

• D'Appollonia. Bernard Lewis. Return of Islam. In Commentary , Vol. 62 , January 1976

• Bernard Lewis. Islamic Revolution. In New York Review of Books, 27 January 1988

• Bernard Lewis. The Arabs in History. London: 1950 and 5th edition 1970

• Bernard Lewis. The Middle East and North Africa. In Chamber's Encyclopaedia World Survey, 1955.

• Bernard Lewis. Western Civilization: A View from the East. The 19th Thomas Jefferson Lecture in the Humanities. Sponsored by the National Endowment for the Humanities, May 2, 1990

• Bernard Lewis. Democracy in the Middle East, Its State and Prospects. In Middle Eastern Affairs. Vol. vi, No. 4, April 1955.